الفيلسوف وتاريخ الفلسفة

بقلم : الدكتور حسن مجيد العبيدي
قسم الفلسفة - جامعة الكوفة

مقدمة

يبدو من الوهلة الاولى، ان هذا العنوان يحمل في طياته نوعاً من التساؤل ، اذ لربما يسأل سائل ، ماهي نوع العلاقة بين الفيلسوف وبين تاريخ الفلسفة. وماقيمة ان يقرأ الفيلسوف أي كان زمانه ومكانه ، افكار ومذاهب الفلسفات التي سبقته، أو المحاينة له. وهو يكتب فلسفة متميزة ، وينشأ نطاقاً منطقياً معرفياً لآرائه ومعتقداته. أي بمعنى هل التاريخ الفلسفي يشكل معيناً له، أم عقبة كأداء لايمكن ان يتجاوزها بسهولة . وهل يمكن ان يتأثر الفيلسوف فضلاً عن التاريخ الفلسفي بمستوى تطور العلوم والنظام الاجتماعي والسياسي لعصره، وهو ينشأ سيكلوجته الفكرية؟ وهل يتخلى الفيلسوف عن تاريخ الفلسفة ويعيش بمعزل عنه أي مايسمى (بالقطيعة الاستمولوجية) . حين يتفلسف ، كما هو حال العلم على سبيل المثال . (كما سيوضح لاحقاً).

ان الاجابة على هذه التساؤلات ، هو الذي يشكل بنية هذا البحث وتفرعاته، عن طريق مقارنات اساسية بين تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم في محاولة لاكتشاف مايشبه القانون العام الذي يحرك النشاط الفكري الفلسفي والفني والادبي وعلاقته بالتاريخ العام للفلسفة. وبيان مامدى طبيعة هذه العلاقة من الناحية الايجابية ام السلبية للفلسفة وتاريخها.

أولاً: ان من البديهي القول ان النشاط الفلسفي بعده نشاطاً يتميز عن سائر النشاطات الاخرى في مختلف العلوم والمعارف، هو انه نشاط منفتح لكل من يريد ان يرتاده ، فضلاً عن قابليته على اقحام أي شيء على موضوعه ، لان الفلسفة كما هو معروف وعبر تاريخها الطويل لم تكن ذات موضوع محدد معين . كونها تتميز بالشمولية والكلية ولهذا فهي تتسع لكل موضوع ، وتدرس كل موضوع يقف امامها ، لتحلل بنيته وتركيبه، وتعيد صياغته وفق قواعد منهجية ابستمولوجية.

وميزة كهذه جعلت الفلسفة تأخذ ابعاداً ايجابية ذاتية لايدانيها أي علم من العلوم الاخرى . وهذا الشيء ينطبق على تاريخها بشكل خاص ، كونه يتميز عن بقية تواريخ العلوم الاخرى التي ابدعها الانسان في صراعه مع الطبيعة والكون.

ان ميزة التاريخ الفلسفي انعكست على الفيلسوف ، بالصورة التي بيناها ، اذ يمكن القول ان التاريخ الفلسفي يشكل معيناً لا ينضب من التساؤلات المشروعة وغير المشروعة لاي فيلسوف ينشأ نظاماً فلسفياً ، ويثير عدة اشكالات منهجية اساسية سواء في مجالات مشكلات الفلسفية ام نوع الاجابة عليها، لان العنصر الذاتي في التفلسف اساس يقوم عليه كل تفلسف ولايمكن عبوره او تجاوزه بأي شكل من الاشكال.

ولاجل ان ننطلق بتوضيح هذه النقطة الى مجال أرحب، فانا سنعقد ابتداءً نوعاً من المقارنة بين التفلسف بعده تاريخاً وبين العلم بعده هو الآخر تأريخا. يتبين للقارئ ما نعنيه بالعلاقة بين الفيلسوف وتاريخه.

ان دراسة أي علم مهما كان نوعه، ينبغي النظر الى دراسة التطورات السابقة لهذا العلم واعتبارها مرحلة ثانوية الاهمية . وربما مرحلة لا قيمة لها. بالنسبة الى دراسة العلم ذاته. مثال ذلك ان دارس الكيمياء لا يحتاج الى دراسة تاريخها. ولربما لايعرف معظم المختصين في هذا العلم الا القليل عن تاريخه وعليه فان دراسة تاريخ العلوم ليست لها اهمية تذكر بالنسبة الى العلوم ذاتها. ومن الممكن ان يسير العلم في طريقه على نحو سليم ومثمر دون ان يتعرض للبحث في تاريخه[١].

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى، نجد ان العلاقة بين العلم وتاريخه هي علاقة مختلفة كلية عن تاريخ الفلسفة ، فالاولى تؤكد ان الاسئلة الاساسية التي كانت تحير العلم ايام بطليميوس أو كوبرنيكس او نيوتن مختلفة عنها ايام داروين واينشتاين واضرابهما. بل هي اليوم تختلف من عقد الى آخر . من ذلك تقول ان تاريخ العلم انما في سيره يبغي الصعود العامودي وليس الافقي. بمعنى ان اللاحق من نهايات العلم تلغي كلية الآراء العلمية السابقة لها وتنسفها نسفاً. ومثال ذلك كوبرينكس وغاليلو بآراء بطليموس وأرسطوكاليس. واينشتاين بآراء نيوتن، بحيث يعود تاريخ العلم تاريخ تراث مضى وانقضى لا يساعد في ايجاد أي حل لاي معضلة تواجه العلم المعاصر.

اما تاريخ الفلسفة . فعلى العكس، فهو تاريخ اتصال فكري وليس انفصلاً او قطيعة ابستمولوجية. حيث ان الفلسفة كثيراً ما تتحد مع تاريخها وتتخذ منه معيناً

لاعادة تشكيل نفسها. للاجابة على مشكلاتها بمعنى ان تاريخ الفلسفة يتميز (بالثبات) . حيث ان الاسئلة الفلسفية التي وضعها الفلاسفة السابقون من امثال افلاطون وارسطو ، مازالت الى اليوم قائمة ولا تبدو فها أي نوع الغرابة في نظر الفلاسفة المعاصرين . فضلاً عن ، ان اجابات القدماء حول هذه الاسئلة مازالت يتمتع بنوع من الاحترام والتقدير لدى الفلاسفة المعاصرين. وهذا هو ما اسميته بفكرة الاتصال بالفلسفة وتاريخها، وفكرة الثبات والدعوية في مشكلاتها ونوع الاجابة حولها.

هذا ولغيره من الاسباب اصبح تاريخ الفلسفة موضوعاً من موضوعات التفلسف واصبح من تقاليد التفكير الفلسفي الرئيسة هي العود الى تاريخ الفلسفة واصله، وان يلم الفيلسوف بالانساق الفلسفية السابقة ويفسرها ويصنفها(٢). أي ان تاريخ الفلسفة ، تاريخ مذاهب متجاورة (افقي المنحنى) ، تتجاوز فيه المذاهب الفلسفية بعضها البعض الآخر، بحيث لايمكن ان يلغي أي مذهب فلسفي المذاهب الاخرى المقابلة لها والمضادة، بل يتعايش معها ويحاول ان يعطي اجابة معينة محددة لذات الشكل الفلسفي المطروح للمناقشة. وهذا ما جعل الفلاسفة السابقين يقرأون اليوم مع الفلاسفة المعاصرين جنباً الى جنب دون ان نلغي أي منهم. وهذا هو احد الاصول الكبرى التي تقوم بها تاريخ الفلسفة الى يومنا هذا.

وعليه، فان الفلسفة ينبغي ان تحتفظ تاريخها بعنصر الاشكالية ، ألا وهو ان الفلسفة تسعى دوماً الى بلوغ الحقيقة عن طريق العقل. حيث ان "المتحف الخيالي" لتاريخ الفلسفة -على حد تعبير مالرو- يتم فيه تجميع المذاهب الفلسفية السابقة جميعاً حتى مذاهب اقرب المعاصرين لنا. وهي مذاهب لا يتدخل أحدهما في الآخر. ولا يمت بصلة لغيره. ولكل منها بوصفه ظاهرة تاريخية ، حقه النسبي الذي يتساوى مع حق غيره . ومن ثم فان تعددها لا ينطوي في نهاية الامر على أي تنافر مع وحدة العقل(٣).

وفي هذا المعنى يقول الفيلسوف المعاصر ميرلوبونتي في كتابه القيم تقريظ الفلسفة، ان كل فلسفة هي بدورها هندسة رموز، تكون في اتصال ضيق مع اشكال التبادل الاخرى التي تشكل الحياة التاريخية والاجتماعية الفلسفة في قلب التاريخ، ليست مستقلة ابداً عن المجرى التاريخي. لكونها تحل مبدئياً الرمز الواعي محل الرمز الضمني للحياة. معنى ظاهراً على المعنى الباطن(٤).

ثانياً: وتأسيساً على ماسبق، تقول، ان دوافع كتابه تاريخ الفلسفة واهميته

للفيلسوف ، وضرورة العودة اليه باستمرار، انما هو بالاصل دافع فلسفي، وتاريخي بالبعد الزماني والترتيب. بعد ان التاريخ الفلسفي هو تاريخ محاولات للكشف عن الحقيقة ، وليس تاريخ حقائق معينة يتوصل اليها الانسان كما هو حال العلم. مما جعل الفلسفة تحمل عبر تاريخها اجوبة خاطئة الى جانب الاجوبة الصحيحة حول المشكلات الفلسفية المطروحة[٥] واحياناً تختلط فيها المعايير الاجتماعية والنفسية والاسطورية . وهي الدافع الذي يحفز الفيلسوف اللاحق للسابق، ان يثير نفس التساؤلات التي أثارها صاحبه من قبل. وان كان جوابه دون شك مختلفاً عنه بالكلية او مطابقاً له بجزئية واحدة او اكثر. وفي هذا المعنى يشير الفيلسوف المعاصر جون لويس ، ان تاريخ الفلسفة هو تاريخ مشكلة تتغير على الدوام، كما يتغير حلها[٦]. ويؤكد هذا المعنى مؤرخ الفلسفة المعروف ليون روبان ، بقوله: ان تاريخ الفلسفة هو في صميمه تاريخ مشكلات تتطور باستمرار ، وتتغير حلولها دائماً وأبداً[٧].

وهذا يعني بمجمله ، ان التاريخ الفلسفي هو تاريخ جدل ونقاش مستمرين فيما بين المذاهب الفلسفية نفسها. فضلاً عن ذلك نجد ان الفيلسوف الذي يعيش بتماس مع تاريخه، نجده يأخذ بعين الاعتبار المشكلات الاجتماعية والعلمية والسياسية والاقتصادية والنفسية ومستوى تطور العلوم في عصره، عند وضع نظامه الفلسفي بشكل اجمالي . لان أي عزل للفلسفة عن تلك المستويات المعرفية والثقافية، انما هو حكم على الفلسفة بالانغلاق والتحجر[٨]. وعليه فان اية نظرة أولية لأعمال الفلسفة، تكشف ان تاريخ الفلسفة ينطبق بالاتصال والتطور، فما من فيلسوف يبدأ من عدم، وانما يبدأ كل بموقفه الذي به شيئاً جديداً[٩].

هذا القول يدفعنا الى الاشارة ، ان تاريخ الفلسفة نفسه ليس مشروعاً واحداً يتحقق تدريجيا وانما هو سلسلة من المجهودات التي تتمتع بنوع من الاصالة وهو مجموعة من الابداعات التي تتحدد بظروفها النوعية لا بغاية كلية[١٠]. ويعني هذا ان الفلسفة لا يمكن باي شكل من الاشكال ان تنفصل عن تاريخها.

ان فكرة "الاتصال" ، كفكرة مركزية في تاريخ الفلسفة ن تتمظهر في المحاولات المنهجية المستمرة التي قام بها الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة، وقد حددت نوعية هذا "الاتصال" ، فمثلاً يرى الفيلسوف المعاصر برتراندرسل (+١٩٧٠) ، ان أي غرض لتاريخ الفلسفة لابد ان يسير على احد طريقين ، الاولى ، اما ان يتبع طريقة السرد البحث مبيناً ما قاله هذا الفيلسوف او ذاك ، والعوامل التي اثرت في هذا او ذاك من الفلاسفة، والثانية، ان يجمع بين السرد وقدر معين من الحكم النقدي ، لكي يتبين

كيف تسير المناقشة الفلسفية[١١]. ورسل نفسه يأخذ بالطريق الثاني في دراسته لتاريخ الفلسفة ، وان كان هذا الطريق الذي تبناه رسل لم يجد له صدىً عند غيره من الفلاسفة ولاسيما الفيلسوف الالماني كارل ياسبرز (+١٩٦٧) ، حيث يعتقد ان تاريخ الفلسفة تتوجب فيه ثلاثة مطالب اساسية ، يعدها مطالب فلسفية (كانتية) نسبة الى الفيلسوف كانت (+١٨٢٤) ، وهذه المطالب هي:

ان يفكر الانسان بنفسه، وان يفكر واضعاً ذاته موضع الغير، وان يفكر باتساق مع نفسه[١٢]. ويعد ياسبرز هذه المطالب بمثابة مهام اساسية لا تنتهي ، مع تأكيده ان يكون الباحث في تاريخ الفلسفة ذا معرفة معمقة باعمال الفلاسفة جنباً الى جنب مع القدرة على الاسهام في هذه المعرفة بنفسه بوصفه فيلسوفاً[١٣].

والفيلسوف ياسبرز يريد بهذا القول ان يبين ان الفيلسوف هيجل (+١٨٣١) هو اول فيلسوف حديث كمثل في وعي تاريخ الفلسفة في مجموعة بكل ابعاده ، بنشاط فلسفي خالص. وهذا هو السبب في ان تاريخه للفلسفة (أي هيجل) مابرح الى اليوم محتفظاً بقيمته الاستثنائية[١٤]. لان هيجل في نظامه الفلسفي قد استوعب جميع الفلسفات السابقة عليه واحتفظ بجوهرها الاصلي.

ولربما يتساءل البعض من كل الذي تم بيانه وعرضه، هل ان تاريخ الفلسفة، هو تاريخ لاخطاء العقل البشري وسجل لتلك الاخطاء، على مايقول معارضوه ومنتقدوه. وللاجابة على ذلك، تكون بالنفي، لان الفلسفة لاتخطئ على الاطلاق، وانما هي تحاول ان تصل الى اليقين والحقيقة عن طريق العقل، الذي هو موضوع الفلسفة الاساسي ووسيلتها. وهذا هو الشغل الشاغل للفلاسفة انفسهم، مما جعلهم لايتنكرون لآراء الفلاسفة السابقين عليهم ولا الى قراءة نتاجهم الفلسفي على الرغم من ان كل فلسفة حينما تبدأ بالظهور تدعي لنفسها انها وحدها الفلسفة الصحيحة الحقة، وانها تمتلك الحقيقة المطلقة. ولهذا فانها ومن اجل اثبات صحة دعواها تضطر الى هدم الفلسفات الاخرى[١٥]، أما ببيان نوع الحلول الفلسفية التي قالتها تلك الفلسفات أو القفز على التاريخ العام للانسانية وأخذ المشكل الفلسفي منعزلاً عن بقية المشكلات القائمة في ذلك العصر ومستوى تطور العلوم والمعارف.

ثالثاً: وحتى تنطلق من التنظير حول العلاقة بين الفيلسوف وتاريخه، الى مستوى تحديد الاهتمام بهذا الموضوع عبر تاريخ الفلسفة، نجد ان الاهتمام بذلك قد بدأ منذ مطلع العصور الفلسفية الاولى، فهو قديم قدم الفلسفة نفسها. ويمكن أن نتلمس ذلك عند المدرسة المشائية وعلى رأسها ارسطوطاليس (+٣٢٢ ق.م) الذي عرض

بطريقة منظمة المذاهب السابقة عليه، فقام بتحليلها ونقدها، حتى ان كتابه عن الميتافيزيقا (مابعد الطبيعة) يعدّ بحق مرجعاً للباحثين في تاريخ الفلسفة اليونانية المتقدمة عليه. كما اكد ذلك كل من فندلبانت وهيجل وزيلر وآخرين من مؤرخي الفلسفة الثقاة[١٦].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن بعض مؤرخي الفلسفة من المعاصرين يرجعون الاهتمام بتاريخ الفلسفة بصورة منهجية علمية مختلفة عما هو متعارف عليه عند القدماء في عرض الفكرة وتطورها من الناحية المنهجية والتأريخية الى اواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ويمكن ان نعزوا ذلك الى ظهور المذاهب الفلسفية في هذه الفترة والتي نادت بفكرة التقدم المستمر في الزمان اللانهائي للروح الانسانية[١٧]. وخير من يمثل هذا الرأي ويتبناه كل من الفيلسوف اوكست كونت (+١٨٥٧م). والفيلسوف هيجل. ويحدد بعض الباحثين ميلاد هذا التاريخ على انه يرجع الى ميلاد علم التاريخ ومنشأة المنهج النقدي عند المدرسة الالمانية الحديثة وعلى رأسها المؤرخ درانكة. وان كان هذا الميلاد مقروناً بظهور "فكرة التقدم" واكتساحها لشتى الميادين المعرفية والعلمية[١٨].

اما قبل هذا التاريخ، فان الاهتمام بتاريخ الفلسفة وصلته بالفيلسوف، كان مغايراً تماماً كما أشرنا اليه آنفاً، أي انه يعتمد في دراسته للفلسفة على ما اكتشفه عصر النهضة من المؤلفات القديمة التي كتبت عن تاريخ الفلسفة، ومن هذه المؤلفات كتاب فلوطرخس الموسوم "أقوال الفلاسفة" والذي ترجمه المترجمون العرب قديماً واسموه "الآراء الطبيعية التي ترضى بها الفلاسفة" [١٩] . فضلاً عن كتاب كليمانس السكندري (+٢١٥م) الموسوم (الامشاج). وكتاب (يوجين اللائرثي (+؟) الموسوم "حياة الفلاسفة". اذ يعد هذا الاخير مرجعاً اساسياً لتاريخ الفلسفة في بدء عصر النهضة. ومازال الى يومنا هذا محتفظاً بهذه المكانة، لاسيما فيما يتعلق بآراء الفلاسفة اليونانيين القدامى[٢٠].

اما فلاسفة عصر النهضة، فان طريقتهم في النظر الى تاريخ الفلسفة، في انهم يكتبون عن هذا التاريخ الفلسفي، كتابة مؤرخي فرق ومذاهب، كون الكاتب منهم يؤرخ للمذهب الفلسفي الذي يؤمن به ويشايعه، دون غيره ويتعصب له ويظهر ميزاته وحسناته. وخير مثال لذلك ماكتبه "مرسيليو فتشينو +١٤٩٩م" عن الافلاطونية المحدثة، وماكتبه يوسيس ليسيوس عن الرواقية، وماكتبه بزيمارد عن الفلاسفة السابقين لسقراط، وماكتبه جسندي عن ابيقور[٢١] ويمكن ان نطلق على

هذه الطريقة التي كتب بها تاريخ الفلسفة عند رجالات عصر النهضة بالطريقة "الخلافية"، والتي تقوم على مايكتب مؤرخ الفلسفة وفي ذهنه تأييد مذهب أو تفنيد مذهب آخر. وقد يكون لهذه الطريقة في دراسة احداث الماضي مزاياها الفلسفية لكنها عرضة لان تقع في كثير من الاخطاء لعل اهمها عدم التزام الدقة في كتابة التاريخ الفلسفي، واصدار احكام متميزة على المذاهب الفلسفية(٢٢). ويمكن ان نعدّ الفلاسفة القدماء من الذين امتازوا بهذه الطريقة فضلاً عن مؤرخي عصر النهضة الفيلسوف اليوناني افلاطون (+٣٤٨ ق.م)، حيث قد ساق في محاوراته الكثير من آراء الفلاسفة السابقين عليه، ولكنه لم يكن رقيقاً في روايته عنهم، بل كانت نظرته اليهم خلافية اكثر مما هي تأريخية، ولا سيما مع السوفسطائيين.

والى جانب هذا الموقف الاول من مؤرخي عصر النهضة، ظهر موقف آخر يرمي الى الفصل بين الفيلولوجيا(٢٣) والفلسفة. وطريقة المنهج الفيلولوجي طريقة شمولية، حيث لاتعني بدراسة مذهب معين، بل تهتم بدراسة المذاهب بصورة عامة ، يعدّها صورة لتطور العقل الانساني من اجل الكشف عن الحقيقة، وعلى ضوء ذلك قام تاريخ الفلسفة متأثراً بهذه الفكرة التي خلفها رجالات عصر النهضة عن المذاهب الفلسفية كونها متعارضة متضاربة.

وفي ضوء ذلك، فان المهمة التي واجهت مؤرخي الفلسفة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بأزاء ماقاله مؤرخو عصر النهضة هي ألا ينظروا الى تاريخ الفلسفة بوصفه تاريخ ضلالات للروح الانسانية في سيرها المستمر عبر الزمان. وقد مثل هذا الرأي بصورة واضحة ودقيقة المؤرخ بروكر في كتابه الموسوم التاريخ النقدي للفلسفة. وقد تاثر برأي بروكر هذا فيما بعد المؤرخ الفيلسوف "كوندياك +١٧٨٠م" ، حين يتحدث عن المذاهب الفلسفية بلهجة تشبه لهجة بروكر في كتابه عن المذاهب الذي ألفه سنة ١٧٤٩م.

وفي مقابل هذه الآراء الفلسفية التي ظهرت هناك، آراء مغايرة في النظر الى تاريخ الفلسفة في القرن السابع عشر. حاول فيها اصحابها ان يجدوا في الفلسفة "وحدة وتناسق"، وان يوفقوا بين المذاهب المختلفة، وان يعدوا المذاهب الفلسفية صوراً عدة للعقل الانساني وهو يتطور ناشداً الكمال والحقيقة المطلقة(٢٤). وفي ضوء هذا ظهر كتاب جوكلينوس الموسوم " التوفيق بين الفلاسفة" والى جانب النزعة التوفيقية، ظهرت نزعة اخرى تلفيقية، وهي التي ترمي الى اختيار ماتراه حقيقة في كل مذهب، على اعتبار ان كل مذهب يحتوي جزءاً من الحقيقة. وما على

مؤرخ الفلسفة الا ان يجمع هذه الجزئيات التي تحوي الحقيقة ليوفق بينها. والى جانب هذه النزعة او تلك في تاريخ الفلسفة، ظهرت في هذا القرن ايضاً نزعات اخرى تهتم بهذا التاريخ، وهي نزعات لاتقبل لا بالتوفيق ولا بالتلفيق، بل هي نزعات نقدية تكتنفها روح التقدم، اذ تقول، ان المهم في تاريخ الفلسفة معرفة الصلة الوثيقة التي تربط هذا المذهب المعين بذاك الآخر.وان نعرف كيف اعتمد المذهب الواحد على غيره من المذاهب(٢٥). ومبنى هذا الرأي هو القول بأن هناك تطوراً في تاريخ الفلسفة، وان هذا التطور يسير على نظام خاص. وان هذا النظام مرتبط بفكرة التقدم. وخير من يمثل هذا الرأي المؤرخ "ديلاند" في كتابه الموسوم "التاريخ النقدي للفلسفة" المتعدد الاجزاء. وكذلك الفيلسوف كوندرسيه في كتابه الموسوم "لوحة تقدم العقل الانساني". ورينهلولد في مقالته الموسومة "حول فكرة تاريخ الفلسفة"(٢٦).

ولفكرة التقدم هذه في تاريخ الفلسفة، قد واجهت عدة انتقادات من قبل الباحثين حول أهمية تاريخ الفلسفة للفيلسوف كما تصورتها، اذ تعد فكرة التقدم ابتعاداً عن هدف كتابة تاريخ الفلسفة، بل هي فلسفة تاريخ، وليست تاريخ فلسفة لانها تحمل الفلسفات الجزئية التي هي موضوع كل تاريخ حقيقي للفلسفة(٢٧). وخير من يوضح خطأ مفهوم التقدم في الفلسفة، الفيلسوف المعاصر كارل يارسبرز، اذ يعدّه ضرب لايليق مع معطيات التاريخ، كون تاريخ الفلسفة يشبه تاريخ الفن في ان أسمى أعماله هي اعمال فذة فريدة لايمكن ان يحل محلها أي شيء آخر. وتاريخ الفلسفة يملك كذلك فتراته الابداعية المعروفة. باعتبار أن الفلسفة في كل زمان هي سمة جوهرية للانسان(٢٨). وفي ضوء ذلك، فقد يكون هناك عصراً متدهوراً في مجالات الحياة ويظهر فيه فيلسوف عملاق (مثال افلوطين +٢٧٠م) و (سكوت أريجين +٨٧٨م)، هما من الشخصيات الفلسفية الفذة والكبيرة في مجال الفلسفة حسب وجهة نظر ياسبرز.

وفي ضوء هذا الاعتبار. فان من يكتب تاريخ الفلسفة، عليه ان ينزع من ذهنه ان فكرة التطور مهمة وكذلك التقدم. بل هي فكرة ثانوية، لان كل فلسفة عظيمة كاملة في ذاتها مستوعبة مكتفية تعيش دون ان تميل على حقيقة تاريخية ما اوسع مجالاً... ومن التناقض ان نروم جعل الفلاسفة يلحق بعضهم بالبعض الآخر، ويعتمد بعضهم على البعض، ونضعهم في درجات سُلم متصل(٢٩).

وان كان مفهوم التقدم والتطور في الفلسفة، قد أخذ حيزاً كبيراً من ابحاث

مؤرخي الفلسفة، رغم الانتقادات التي جابهته من قبل مؤرخي فلسفة اخرى، الا انه يبقى هناك ثمة تساؤل مرتبط بهذا المفهوم، ألا وهو: هل التطور في الفلسفة يعدّ قانوناً، أم ان تعاقب المذاهب احتمالي ورهين بالصدفة والامزجة الفردية؟

يعدّ هذا التساؤل عند مؤرخ الفلسفة المعروف بريهية من أهم التساؤلات التي تتعلق بتاريخ الفلسفة، اذ يجيب عنه بقوله: ان فكرة النظر الى تاريخ الفلسفة في جملة تطوره ووحدته فكرة حديثة العهد نسبياً، فهي مظهر من مظاهر مذاهب تقدم العقل البشري، التي راجت في اواخر القرن الثامن عشر(٣٠). وخير من يمثل هذا الموقف اوكست كونت وهيجل. ويعتقد بريهيه ان الدافع وراء هذا الرأي الذي قال به اصحابه، هو ان يضعوا رابطة حركية بين المذاهب المختلفة، على هذا الاساس لاتسير في تطورها نحو مذهب بالذات. أو من اجل خدمة غاية معينة،...، وانما الفلسفة وكل الحياة العقلية تسير في تطورها نحو الغاية العامة للانسانية كلها(٣١). فمثلاً اوكست كونت يقرر في هذا المجال ان علماً من العلوم لايمكن ان يفهم من دون تاريخه الخاص، وهذا التاريخ مرتبط دائماً بتاريخ الانسانية العام، وعلى ضوء ذلك لانستطيع ان نفصل الماضي عن الحاضر ولاعن المستقبل، بمعنى ان التطور الانساني هو تطور واحد، مهما اختلفت اوجه الحياة الفكرية للانسان. فهناك وحدة تسود هذا التطور وتحاول ان تربطه برباط وثيق، فليس هناك اذن تقسيم للحياة الروحية والفكرية التي مر بها الانسان. ولابد هنا وحسب تصور كونت، ان تتصور التاريخ مستمراً. وهو من اجل ان يقول بقانونه المعروف قانون المراحل أو الاطوار الثلاثة. والنتيجة التي يريد كونت ان يوصلها الينا بخصوص تاريخ الفلسفة هي ان ليس لنا ان ننظر الى العصور الوسطى القديمة (اليونانية) على انها أرقى في التفكير من العصر الوسيط، لان التفكير العلمي لايمكن أن يأتي الا اذا مر الانسان بالطور الميتافيزقي. فنظرة كونت الى تاريخ الفلسفة انما يقصد بها تاريخ الحياة الروحية والفكرية لعصر من العصور، والفلسفة ليست الا مظهراً من مظاهر الحياة البارزة.

ويتابع هذا الرأي لكونت، الفيلسوف هيجل، حيث يمكن القول ان هيجل بكل تأكيد هو (أب) كل تاريخ للفلسفة بالمعنى الدقيق لهذا اللقلب، كما يؤكد ذلك يوبز(٣٢) لان هيجل لم يعمد الى مجرد تجميع النظريات السابقة للاشادة بها أو الى اساءة استخدامها كمناسبة للتهوين من شأن اسلافه. وتبرير دعاواه عن طريق المقارنة في تلك الفترة الحافلة بتشييد المذاهب الفلسفية التي جاءت بعد كانت. حيث اكتشف هيجل ان النظريات الفلسفية الجديدة تظهر باستمرار مؤكدة طابعها

المطلق. وان الحلول الختامية المزعومة للمشكلات الكونية جميعاً ينسج بعضها بعضاً بسرعة فائقة(٣٣). وهي جهة اخرى يؤكد هيجل ان تاريخ الفلسفة ليس معرضاً للآراء أو المذاهب الفلسفية التي يعقب بعها البعض الآخر بغير رابط(٣٤). أي ان تاريخ الفلسفة ليس الا الروح المطلقة حين تنظر اليها من الخارج، أي بوصفها تعرض نفسها في الزمان . فهي مثل كرة الثلج تزداد تضخماً عند دحرجتها بحيث تحمل الكرة المتدحرجة فتات الثلج الذي التقطته عبر مسيرتها. وهنا يقول هيجل، ان الفلسفة المعاصرة (له) تتضمن كل ما انتجه عمل الآلاف السنين، انها حصيلة كل ماسبقها. فتاريخ الفلسفة هو نمو الفكرة وقد نظر اليها من الوجهة التأريخية، انه تاريخ لنمو الفكر بفعل ذاته(٣٥). فوحدة تاريخ الفلسفة، من حيث انها نحو هذه الفلسفة السرمدية، التي تعيش متصلة على طول الزمان(٣٦).

وهيجل حين يقرر مفهوم التطور والوحدة في تاريخ الفلسفة، فانه بذلك يكون متسقاً متناغماً مع فلسفته التي انشأها لنفسه، وهي فلسفة الروح المطلقة الكلية، فمهما اختلفت المذاهب الفلسفية بنظره، فهي ليست في الواقع غير وحدة واحدة تجمعها الروح المطلقة التي تعرض نفسها في تاريخ الفلسفة، وكما ان الفلسفة ليست غير الروح المطلقة منظوراً اليها من حيث الزمان(٣٧). ويتابع راي هيجل وكونت من جعل، فيلسوف آخر هو الفيلسوف فيشر، حيث يقول: ان الفلسفة هي تاريخ الفلسفة، وان التفكير الانساني لايمكن ان يفهم الا من خلال تطوراته المتوالية عبر الزمان(٣٨).

ومن المفيد والجدير بالذكر، ان نعرض هنا احد كبار مؤرخي الفلسفة في العصر الحديث، ألا وهو الفيلسوف (اميل بوترروا +١٩٢١)، الذي اهتم اهتماماً جدياً بدراسة تاريخ الفلسفة وعلاقته بالتفلسف، ففي احدى محاضراته عن دور تاريخ الفلسفة، في دراسة الفلسفة، يقرر بوترو، ان تاريخ الفلسفة على علاقة وثيقة بتصور الفلسفة نفسها، اذ يرى في تاريخ الفلسفة تعاوناً في سبيل التحقيق التلقائي للحياة الكلية للروح. بمعنى ان اية فكرة ذات قيمة يجب أن توضح خاصيتين، اولهما، ان تكون شخصية، وثانيهما، يجب أن ترتبط بالفكر الكلي. ومن وجهة النظر هاتين يلعب تاريخ الفلسفة دوراً رئيساً(٣٩). أي ان الفيلسوف الحق، رجل ينمي وجود الفلسفة وموادها، والفلسفة لاتطلب فقط من تاريخ الفلسفة امثلة وتجارب وايحاءات وتحذيرات، ومواد، ووثائق، بل مشاركة في الحياة العامة للروح الانسانية. وبذلك يكون تاريخ الفلسفة هو جماع مجهودات الروح الفلسفية

متموضعة ومدركة في نتائجها[٤٠].

وفي مقابل هذه الآراء والمواقف التي عرضناها، نجد ان البحث العلمي لايستطيع ان يقبل بها دون تمحيص ونقد. فظهرت النصف الثاني من القرن التاسع عشر آراء جديدة لاتقبل بالآراء التي نادى بها هيجل ومن قبل كونت. فمثلاً يقول مؤرخ الفلسفة رونو فيه (+١٩٠٣) ، ان الناظر لتاريخ الفلسفة لايستطيع ان يعترف بان هذا التاريخ عبارة عن عدة مذاهب أو شيع متضاربة متعارضة ولايمكن القول مطلقاً ان هذا الاختلاف يمكن ان يزول او انه خلاف عرضي[٤١]. ورأي رونوفيه هذا، يمثل الحالة التي وصلت اليها الدراسات التاريخية للفلسفة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. اذ اخذ البحث في هذه المرحلة اتجاهاً آخر، فبدلاً من الكتابة الشاملة الكلية والعامة لتاريخ الفلسفة، اخذ مؤرخو الفلسفة يكتبون مؤلفات محددة بحقبة زمنية معينة، فمثلاً ظهرت مؤلفات عدة تنحو بهذا الاتجاه، ومن هذه المؤلفات، كتاب (زيلر +١٩٠٨) الموسوم فلسفة الاغريق، وكتاب (دوهيم +١٩١٦)، والموسوم نظام العالم من افلاطون الى كوبرنيكس. وهاملن في كتاب عن مذهب ارسطو ومذهب ديكارت[٤٢]. ويفروا بريهية هذا الاتجاه في كتابه تاريخ الفلسفة الى نوعين من الاسباب اولها، المجهود الفيولوجي الهائل الذي اغنى معارفنا ومال بكفتها الى الوضوح والفرقة، ابتداءاً من عام ١٨٥٠م، والثاني، هو عدم الطموح لتقديم مجمل الماضي الفلسفي، فكونت وهيجل وحتى رونوفية يهتمون بالفلسفة، لا بالفلاسفة. وفضلاً عن هذين العاملين، هناك عاملاً ثالثاً هو عامل القومية، اذ يمكن القول ان هذا العامل قد اضطرنا الى النظر الى شئ آخر في الفلاسفة غير الفردية والعبقرية، ونعني بذلك القومية. وفي ضوء ذلك نرى ان المؤرخين المحدثين لايكتبون عن تاريخ عام للفلسفة، بقدر مايهتمون بكتابة تاريخ للفلسفات القومية (مثلا، الفرنسية، الالمانية، الانجليزية، الامريكية، العربية،...) فنجد مثلاً مايعزز هذا القول ظهور عدة مؤلفات في هذا الجانب، فهناك مثلاً بنروبي، مؤلف تيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا، ورودلف ميتس، في كتابة مائة عام في الفلسفة الانجليزية، وآستر، عن تاريخ الفلسفة الالمانية، المعاصرة، وهوبرت شنيدر، من تاريخ الفلسفة الامريكية، وحنا الفاخوري وخليل الجر، عن تاريخ الفلسفة العربية.

وبهذا يمكن القول، ان كل فلسفة لها طابعها القومي الخاص بها، فلدينا اذن عدة اختلافات، منها الاختلاف في النبوغ والاختلاف في الفردية والمزاج، والاختلاف في

القومية، والاختلاف في الزمان.

خاتمة:

اتضح من البحث في مسألة العلاقـة بين الفيلسـوف وتـاريخ الفلسـفة، ان هـذا التاريخ يشكل العمود الفقري لكل تفلسف يريد ان يقام، وان يتخـذ لنفسـه موقفـاً ومذهباً بازاء الفلسفات الاخرى، كمـا واتضـح في البحـث ان هـذا التـاريخ يتمتـع بصفة ايجابية لايدانيه فيه أي تاريخ آخر. لأن الفيلسـوف في حالـة التفلسـف ينقطـع عن تاريخه انقطاعاً انشائياً ليعود اليه فيما بعد ويسـتند اليـه في تثبيـت دعـائم نظامـه الفلسفي، كما ويتسم هذا التـاريخ بسـمة الشـمولية والكليـة والسـرمدية. فتـاريخ الفلسفة جزءاً من الفلسفة لاينفصم عنها ولاينقطع.

الهوامش

١. انظر: فؤاد زكريا، آراء نقدية في مشكلات الفكر، ص١٩٥.
٢. انظر : فتحي التريكي ، الفلسفة الشريدة، ص١٣.
٣. انظر: روديجر بوبنر ، الفلسفة الالمانية الحديثة، ترجمة فؤاد كامل ،ص١٧.
٤. انظر : ترجمة خوري قزحيا، ص٥٢. وكارن ، كارل ياسبرز ، عظمة الفلسفة ، ترجمة عادل العوا، ص٢٧.
٥. انظر : فؤاد زكريا ، مشكلات ، ص٢٠٠، وكارن ، جيجن ، المشكلات الكبرى، ترجمة عزة قرني ص١٤٧.
٦. جون لويس، مدخل الى الفلسفة ، ترجمة انور عبدالملك ، ص٢٢.
٧. زكريا ابراهيم، مشكلة الفلسفة،ص٢٧٠.
٨. اميل بريهيه ، تاريخ الفلسفة ، ج١، ترجمة جورج طرابيشي، ص١٣. وكارن جون لويس ، مدخل ، ص٢٢.
٩. محمود زيدان ، مناهج البحث الفلسفي ، ص١٣٥.
١٠. عبدالسلام بنعبد العالي ، المتيافيزيقا، ص٢٧، وانظر : هيجل ، موسوعة الفلسفة، ترجمة امام عبدالفتاح امام ، ص٢٤ (المقدمة).
١١. حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا ، ج١، ص١٦.
١٢. مدخل الى الفلسفة ، ترجمة الشنقيطي ، ص٢٥٣.
١٣. ايضاً، ص٢٥٧.
١٤. ايضاً، ص٢٥٧، وانظر : هيجل ، موسوعة الفلسفة ، ترجمة امام ، ص٢٤، كذلك امام عبدالفتاح ، هيجل وتاريخ الفلسفة، مجلة الحكمة الليبية ، عدد٢ ، سنة ٢، ١٩٧٧، ص٣٥.
١٥. عبدالرحمن بدوي ، مدخل جديد الى الفلسفة، ص٥٢، وانظر: محمود زيدان ، مناهج ، ص١٣٥، النشار، نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان ، ص٤.
١٦. انظر: امام عبدالفتاح ، هيجل وتاريخ الفلسفة ، بحث، ص٣٥، وقارن ، بوبنر، الفلسفة الالمانية ،ص١٤.
١٧. بدوي، ربيع الفكر اليوناني ، ص١٥. وانظر: عبدالسلام بنعبدالعالي، الميتافيزيكا، ص٢٦.
١٨. عبدالسلام بنعبد العالي، الميتافيزيكا، ص٢٦.

١٩.حققه ونشره ضمن كتاب النفس لارسطو، عبدالرحمن بدوي ، الكويت ١٩٧٨.
٢٠.انظر: بدوي ، ربيع، ص١٥، وقارن ، بريهية ، تاريخ الفلسفة ، ج١، ص١٧.
٢١.بدوي ، ربيع، ص١٧.
٢٢.امام عبدالفتاح ، هيجل وتاريخ، ص٣٦.
٢٣.الفيلولوجيا، علم دراسة الآثار الفكرية والروحية ، دراسة تقوم على النصوص وتحقيق الوثائق وبمعنى عام هو العلم الذي يبحث في التراث الفكري المكتوب الذي خلفته امة من الامم.
٢٤.انظر : بدوي ، ربيع ، ص١٩.
٢٥.ايضا ، ص٢٠.
٢٦.المصدر السابق نفسه.
٢٧.انظر: عبدالسلام بنعبد العالي، الميتافيزيكا ، ص٢٦.
٢٨.انظر: مدخل الى الفلسفة، ص٢٤٣.
٢٩.ايضاً ، ص٢٤٤.
٣٠.انظر: بريهية ، تاريخ الفلسفة، ج١، ص١٧.
٣١.ايضا، ص١٧-٢٩، وقارن ، بدوي ، ربيع ، ص٢٢.
٣٢.انظر: الفلسفة الالمانية، ص١٥.
٣٣.ايضا، ص١٥.
٣٤.انظر: هيجل ، موسوعة، ص٢٤.
٣٥.اميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان ، ص١٠. وقارن ، عبدالسلام بنعبد العالي ، الميتافيزيكا، ص٢٤.
٣٦.ياسبرز، مدخل ، ص٢٣٩، وهيجل ، موسوعة ، ص٢٤.
٣٧.انظر: بدوين ربيع، ص٢٥،وقارن ، بوينر، الفلسفة الالمانية ، ص١٥.
٣٨.انظر: مطاع صفدي، الحرية والوجود، ص٢٨.
٣٩.بنروبي، مصدر تيارات الفلسفة الفرنسية المعاصرة ، ترجمة بدوي، ج٢،ص٤٢٩.
٤٠.ايضاً، ص٤٣٠.
٤١.بدوي، ربيع، ص٢٦، وقارن ، بريهية ، تاريخ، ج١، ص٣٦.
٤٢.بريهية ، تاريخ ، ج١ ص٣٦.
٤٣.ايضا، ص٣٦-٣٧.

المصادر والمراجع

١- ابراهيم، د.زكريا - مشكلة الفلسفة ، القاهرة ١٩٧١.
٢- امام، د. امام عبدالفتاح - هيجل وتاريخ الفلسفة، بحث، مجلة الحكمة الليبية، عدد ٢، سنة ١٩٧٧،٢.
٣- بدوي، د. عبدالرحمن - ربيع الفكر اليوناني، ط٤، القاهرة ١٩٦٩- مدخل جديد الى الفلسفة، ط١، بيروت ١٩٧٥.
٤- بنروبي، د - مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا، ترجمة عبدالرحمن بدوي، بيروت ١٩٨٠.
٥- بنعيد العالي، عبدالسلام - الميتافيزيقا، العلم والايدلوجيا، بيروت ١٩٨١.
٦- بريهية، أميل - تاريخ الفلسفة، متعدد الاجزاء، ترجمة جورج طاييش ج١، بيروت ١٩٨٢.
٧- بونبر، روديجر - الفلسفة الالمانية الحديثة، ترجمة فؤاد كامل، بغداد ١٩٨٧.
٨- التريكي، د. فتحي - الفلسفة الشريدة، بيروت (بلا).
٩- رسل، برتراند - حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، الكويت ١٩٨٣، ج١ .
١٠- زكريا، د. فؤاد - آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، القاهرة ١٩٧٥.
١١- زيدان، د. محمود - مناهج البحث الفلسفي، الاسكندرية ١٩٧٧.
١٢- صفدي، د. مطاع - الحرية والوجود، بيروت (د.ت).
١٣- فلوطرخس- الآراء الطبيعية التي ترضى بها الفلاسفة، تحقيق بدوي، بيروت ١٩٨٠.
١٤- لويس ، جون - مدخل الى الفلسفة، ترجمة انور عبدالملك، ط٢، بيروت ١٩٨٣.
١٥- مطر، د. اميرة حلمي - الفلسفة عند اليونان، ط٢، القاهرة ١٩٧٤.
١٦- ميرلوبونتي، موريس - تقريظ الفلسفة، ترجمة خوري قزحيا، بيروت ١٩٨٣.
١٧- النشار، د. علي سامي - نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان، ط١، القاهرة ١٩٦٤.
١٨- هيجل، ف. وهلم - موسوعة العلوم الفلسفية، حج١، المنطق ، ترجمة وتقديم دكتور امام عبدالفتاح امام، بيروت ١٩٨٣.
١٩- ياسبرز، كارل - عظمة الفلسفة، ترجمة عادل العوا، بيروت ١٩٨٠. - المدخل الى الفلسفة ، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، القاهرة ١٩٦٧.
٢٠- اولف،جيجن-المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية، ترجمة عزة قرني، القاهرة ١٩٧٦.